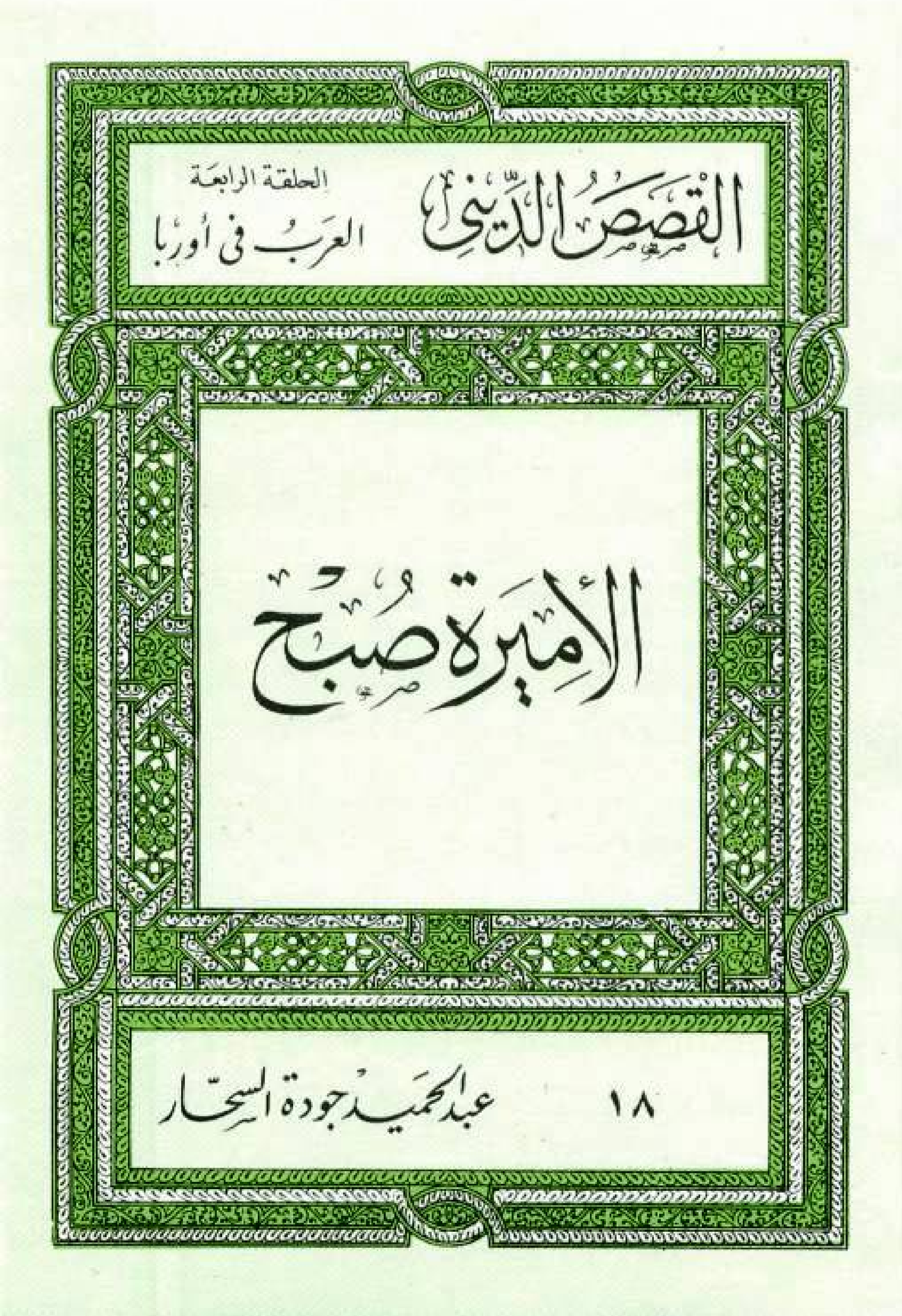


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
الأميرة صبح
١٨
عبد الحميد جودة السحار

١

كانت السَّيدةُ صُبح ، من نِساء البشْكَنْس ، تلـك المِنطَقةِ الواقِعةِ فى شَمالِ أسبانيا ، بالقُربِ من جبـالِ البيرانية ؛ وقد وقَعَتْ فى السَّبى ، يومَ غزا العربُ تلك المِنطقـةَ واجتاحُوهـا ، ولما كـانت شابـةً رائعةَ الجمـال ، حُملَت إلى قصرِ الحَكَم بقُرطبة . وفـى ذات يوم ، بينما الحكمُ يجولُ فى قصرِ الزَّهراء ، إذ مَسَّ أذنيه صوتُهـا الآسِر ؛ فـانطَلَقَ إليهـا ؛ وجلـسَ يُصغِى إلى النَّغمِ الحُلـو المُطرب ؛ وما غادَرهـا حتـى تركت فى نفسِهِ أثرًا طيِّبًـا . فكـانَ كلَّمـا تعِبَ من أمورِ مُلكِهِ ، هُرِعَ إليها ، ليجِدَ عندَها الرَّاحةَ والدَّعة والسَّلام .

ووضَعـتْ لـه ولَـدا ، فـارتفعَتْ مكانتُهـا عنــدَه ، وصارت أميرةً لقُرطُبة . ولم يجدْ فى ذلـك غَضاضَـة ،

فقد كثُرَ زواجُ الأُمراءِ والعُظماء ، بل عامَّةِ الشَّعب ، من أسبانيَّات ، بل كان الدَّمُ الأسبانيّ يجرى فى عُروقه ، فقد تزوَّجَ جَدُّه بماريَّةَ الأسبانِيَّة ، ورُزقَ منها والِدَه العَظيم ، عبد الرَّحمنِ النّاصِر ، الذى كان أعظَمَ ملوكِ الأندلُسِ بلا مِراء .

واشتركتْ صُبحُ فى إدارةِ شئُونِ البلاد ، فكانت تجتمعُ كلَّ يومٍ بالمُصحَفيّ ، رئيسِ الوُزراء ، تُصْدِرُ الأوامِرَ ، وتُشرِفُ على تحريرِ الكُتبِ إلى العُمَّالِ والقُوّادِ والقُضاة . وفَطَنَ الحَكَمُ إلى ما تَبذُلُه صُبحُ من جَهدٍ فى تصريفِ أمورِ الدَّولة ، فأمَرَ بأن يُعلِنَ القَصرُ عن حاجتِه إلى كاتبٍ للأميرة ، يُعاوِنُها فى عملِها .

٢

تعلَّمَ محمَّدُ بنُ أبى عامِرٍ فى جامِعةِ قُرطبة ، ولمّا أتمّ دِراستَه ، فتحَ حانُوتًا تُجاهَ القَصر ، يُحَرِّرُ للنّاسِ

شَكاواهُم ، ويُنمِّقُ لهم مظالِمَهم . وفى ذاتِ يـوم؛ وفَـدَ إليـه بعضُ صِحابه من طُـلاَّبِ جامعـةِ قُرطبـة ، فخـرجَ معهم إلى مُتنزَّهٍ من المُتنزَّهات ، وشَرَدَ خيالُه ، فسألَه أحدُ أصحابه عمَّا يَشغلُ بالَه ، فقال ابنُ أبى عامر :

ـــ سأكونُ حـاكمَ هـذه الدَّولـةِ يومًـا مـا ؛ تَمَنَّـوا علىَّ ، وليَختَرْ كلُّ واحدٍ منكمُ خُطَّة ، أوليهِ إيَّاها إذا أُفضِىَ إلىَّ الأمر .

فقال أحدُهم :

ـ أتمنَّى أن تُولِّينى القَضاءَ بجهتى كُورةِ رَيَّة ، فإنَّـه يُعجبنُى هـذا التِّينُ الـذى يجىءُ منهـا ، وأحِـبُّ أن أشتفِىَ من أكلِه .

وقالَ ابنُ عَسقَلاجَة ، وكان ابنَ عَمِّه :

ـــ إنِّـى أوثِـرُ قُرطبـةَ ذاتَ القُصـورِ العجيبـة ، والمساجدِ الفَخمة ، زينـةَ المُدن ، وعَروسَ البـلاد ، وأقصى ما أتَمنَّاه أن أكونَ حاكِمًا لها .

وقال صديقُه الثالث :

ـ أتمنى إذا أفضىَ إليكَ الأمر ، أن يُطافَ بى قُرطُبةَ كلّها على حِمار ، ووجهِى إلى الذَّنب ، وأنا مَطلِىٌّ بالعَسَل ؛ ليجتَمعَ الذُّبابُ علىَّ والنَّحل ، وليكن هذا أوَّلَ ما تستفتِحُ به عهدَك ، إذا حكمتَ الأندَلُس .

وأسَرَّها ابنُ أبى عامر فى نفسه .

٣

وفَدَ إلى قَصرِ الزَّهراءِ كثيرٌ من كُتَّابِ الأندَلُس ، ليختارَ الخليفةُ من بينِهم كاتبًا للأميرة ، وتقدَّمَ محمدُ ابنُ أبى عامر ، وهو يرجُو أن ينالَ الوظيفة ؛ إنه إذا دخلَ القصر ، عرفَ كيفَ يُحقّقُ أطماعَه الواسِعةَ العَريضة .

وأُذِنَ لابنِ أبى عامر بالدُّخول ، فسارَ واجِفَ القَلب . ورأى الحَكَمَ فى صدْرِ القاعة ، وإلى يمينِه

جَعفَرٌ المُصحَفِيُّ حاجِبُ الدَّولة ، فانحَنَى حتى كادت جَبهَتُه تَلمُسُ الأرض ، ثمَّ اعتَدَلَ ووقف بعيدا . ثم أُشِيرَ إليه أن يتقدَّم ، فتقدَّمَ فى ثِقة ، وجلسَ أمامَ الخليفةِ وحاجِبه .

ووقعَ اختيارُ الخليفةِ على ابنِ أبى عامرٍ ؛ وجاءَتِ السَّيدةُ صبْح ، فأقَرَّتِ اختيارَ الخليفة ، فقد كانت شَخصِيَّةُ ابن أبى عامر قوِيَّةً آسِرة ، تستريحُ إليها النُّفوس ، وتنجَذِبُ إليها القلوبُ والأبصار .

وأصبحَ ابنُ أبى عامِرٍ كاتبَ الأميرة ، فراحتْ صُبح ، والمُصحَفِيُّ حاجِبُ الدَّولة ، وابنُ أبى عامر كاتبُها ، يجتمعونَ كلَّ يوم فى جَناحِ الأميرة . كانت صُبحُ وحاجِبُ الدَّولةِ يتدارسانِ فى شؤونِ المُلك ، وابنُ أبى عامِرٍ ينتظِرُ أوامِرَ الأميرة ، ليُحرِّرَ كُتُبَها إلى العُمَّالِ والقُوَّادِ والقُضاة .

وراحَتْ صُبحُ ترعاه ، أمَّا المُصحَفِىُّ فما كان يهتَمُّ بذلكَ الشّابِّ الألمَعِىّ ، بل كان ينظُرُ إليه نظرَته إلى خادمٍ عادىّ ، من خُدّام القَصر . وكانَ يُعامِلُه أحيانًا فى غِلظَة ، وقد أوغَرَ صدرَ الشّابِّ على المُصحَفِىّ ، أنه كان إذا ذهبَ إلى دارِه لعمل من الأعمال ، يترُكهُ فى دِهليزِ بيتِه السّاعات ؛ فكانَ ذلكَ يزيدُ فى حِقْدِ ابنِ أبى عامِرٍ على الحاجبِ البَربَرىّ ، الذى عاوَنه حظُّه ليكونَ رئيسًا للوُزراء ، يتحكّمُ فى أقدارِ النّاس .

٤

ارتفعَ قَدرُ ابن أبى عامِر فى القصر ، بفضلِ رِعايَةِ الأميرة ، فأصبحَ منافسًا خطيرًا لولَدَىْ المُصحفِىّ : محمدٍ وعُثمان . وراحَ ابنُ أبى عامر يتودَّدُ إلى كلِّ مَن فى القصر . ورأى أنَّ الخَصِيَّين : فائقًا وجُؤذرا ،

اللّذينِ يحكُمـانِ على ألـفِ مملوكٍ مـن الصَّقالِبـةِ ممـن يعمَلُـونَ بـالقصر ، يكرَهـانِ المُصحَفِـىّ ، فـأرادَ أن يكسـبَهما إلى جانِبـه ، فـراحَ يُلاطِفُهمـا ويُغرقهُمـا بالهَدايا .

وراحَ الحَكَمُ يرقُـبُ الشّـابَّ وهـو فـى حَيرةٍ مـن أمرِه ، وقدْ أفصَحَ عن حَيرَته بقوله للمُصحَفِىّ :

ـ واللّه لا أدرى يا جَعفَر أأعُدُّه من المُخلصينَ لنا ، أم أعُدُّه ساحِرًا مُحتالا ؟

فلـم ينبسْ المُصحفىّ بكَلِمـة ، خشِـىَ أن يفضَـحَ نفسَه ، ويُعلِنَ عن بُغضِه للشّاب ، فـلا يكسِـبَ مـن ذلك إلاّ عَداوَةَ الأميرة .

وراحَ ابنُ أبى عامِر ، بفضْلِ رِعايَةِ الأميرة ، يرقَـى سُلّمَ المَجدِ سريعا . فصارَ ناظِرًا لخزينـةِ الدّولـة ، ثـمَّ عُيِّنَ للنَّظَرِ فى أمانةِ دارِ السّكّة ، وصارَ صدِيقًا حميمًا للـوزراء . وفكّـرَ فـى أن يُهـدِىَ إلى الأمـيرةِ هَديـــّةً

جليلـة ، اعترافًا بفضلِها ، فجلَبَ أمهرَ الصُّنّاع ، وعهدَ إليهم بصنعِ تُحفةٍ فَريدة ، تَفوقُ روائِعَ قصرِ الزَّهراء . فراحُوا يصنَعونَ من الفِضَّة نَموذجًا صَغِيرا ، لقصرٍ من قصورِ الأندَلُسِ الرَّائِعة ، فأبدَعُوا ما شاءَ لهم الإِبداع ، فجاءَ النَّمُوذَجُ آيةً من آياتِ الفنِّ والجَمال .

وحُمِلَت الهَدِيَّةُ النَّفيسَةُ من دارِ ابنِ أبى عامر إلى قصرِ الزَّهراء ، فاصطَفَّ النَّاسُ على جانِبَى الطَّريق لرؤيةِ التُّحفَةِ النَّادِرةِ المِثال .

٥

أصابَ الحَكَمَ فالِج ، فلَزِمَ فِراشَه ، فراحَتْ صُبحُ تُفكِّرُ فى حالِها إذا ماتَ زوجُها ، فرأت أنَّ عليها أن تغادِرَ قصرَ الزَّهراء ، للخليفةِ الجديد ، بعدَ أن

اعتادَت أن تجمعَ فى يدِها السُّلطان . فعزَمَت على أن تُغرِىَ الحكم بنقلِ الخِلافةِ إلى ابنِها هشام . فإذا قَبل ، كانَ معنى ذلك إبقاءَ نفوذِها ، وإدارةَ شُئونِ الأَندَلُس من وراء ستار .

ودخلَتْ على الخليفةِ وهو مُمَدَّدٌ فى فراشِه ، وراحتْ تُواسِيه ، فقال لها فيما قال :

ـ إنَّ ما تكهَّنَ به ذلك الكاهِنُ يَرِنُّ فى أذُنِى آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهار . إنَّ صوتَه يهتِفُ بى ، ويصيحُ دوامًا : « لا يزالُ مُلكُ بنى أميَّةَ بالأندَلُسِ فى إقبالٍ ودَوام ، ما توارَثَهُ الأبناءُ عنِ الآباء ؛ فإذا انتقَلَ إلى الإِخوة ، وتوارثوه فيما بينهم ، أدبَرَ وانصَرَمَ » .

ورأتْ صُبْحُ الفُرصَةَ سانِحة ، لتلتمِسَ من زَوجِها نقلَ الخِلافَةِ إلى ابنِها الذى لم يبلُغْ الحُلُم ، فقالت :

ـ خُذِ البيعَةَ لابنِكَ هِشام .

ـ سيُحجمُ الشَّعبُ عن مُبايَعَتِه ، وسَيُقاوِمُ أخى المُغيرةُ تلكَ البَيعة .

وظَلّتْ تُحَسِّنُ له نقلَ الخِلافَةِ إلى ابنِه ، حتّى لا يزولَ مُلكُ بني أميَّةَ من الأندَلُس ، كما زالَ من الشّرق ، حتى قَبلَ نقلَ الخِلافَةِ إلى هِشام .

ولم تَنسَ صُبحُ ابنَ أبي عامِرٍ في تلكَ اللّحظة ، فقالت :

ـ لو كان صاحِبُ الشُّرطةِ من خُلَصائِنا الأوفياء ، لأمِنّا سُلوكَ النّاس . ماذا يا مَولايَ لو جعلنا ابنَ أبي عامِرٍ صاحبَ الشُّرطةِ في البلاد ؟

ووافَقَ الحَكَم ، وصارَ ابنُ أبي عامر صاحِبَ الشُّرطة .

٦

وراحَتِ الدَّسائِسُ تُحاكُ في قَصرِ الزَّهراء ، فأخذَ فائقٌ وجُؤذَرٌ يُفكّرانِ فيما يفعلانِه إذا ماتَ الحَكَم .

كانا صاحِبَى نُفوذٍ فى القصر ، فتحتَ أيدِيهما أَلْفٌ من الصَّقالِبة العبيد ، الذينَ لا يعصُونَ لهما أمرا ؛ وكانا يمقُتان المُصحَفِىّ ، لِصَلَفِه وبُخلِه الشَّديد ، وقد استمالَهما المَغيرةُ أخو الحَكَم بهداياه ، فأصبَحَ لهما الضِّياعُ الواسعة . فرأيا أن يُنادِيا بالمُغيرةِ خليفةً على الأندَلُس ، بعدَ موتِ الحكَم ، لأنَّهما إذا فعَلا ذلك ، كان لهما الفضلُ على الخليفة ، فيُمكَّنَ لهما فى الدَّولة ، ويقوى نفوذُهما . وفى توليةِ المُغيرةِ قضاءٌ على المُصحَفِىّ ، الذى يمقتانِه أشدَّ المَقت .

وتَدَفَّقَ وجُوهُ القَومِ وأعيانُ الدَّولةِ على الحكَمِ الرّاقِدِ فى فراشِه ، ووقَفَ بالقربِ من فِراشِ الخَليفةِالمريضِ : المُصحَفِىُّ حاجبُ الدَّولة ، وخلْفَه ابنُ أبى عامِر وكيلُ هِشام ولىِّ العهد ، ووقَفتْ صُبْحُ خلفَ سِتار ، ترصُدُ ما يجرى فى مكان الاجتماع ؛ فما جاءَ هؤلاءِ جميعا إلاّ بتدبيرِها ، لِيُبايِعوا ابنَها هِشامًا خليفةً ، بعدَ مَوتِ أبيه .

وتمّتِ البَيعَة ، ولم تَنسَ صُبحُ ابنَ أبى عـامِرٍ ، فقـد صارَ المُفَتّشَ العامَّ للقصر .

٧

وماتَ الحَكَم ، فقالت صبحُ لفائِق وجُؤذَر :

ـ ينبَغِى ألاّ يعلَمَ أحدٌ بموتِ الخليفة .

وفطنا إلى أنـّها تُدبّرُ أمرَ المُناداةِ بابنِها خليفـةً علـى الأندَلُس ، قبلَ أن تُعلِنَ خبرَ وفـاةِ أبيـه ، فغادَراهـا ، والتفتَ جُؤذَرٌ إلى فائق ، وقال :

ـ ينبَغِى أن نُحضِـرَ جَعْفَـرَ بـنَ عُثمـانَ المُصحفِـى ، ونضرِبَ عُنُقَه ، فبذلِكَ يتمُّ أمرُنا .

ـ لعلّه لا يُخالِفُنا فيما نُريده .

ولمحا المُصحَفِىَّ مُقبلا ، فأسرعا إليه ، وقالا :

ــ مـاتَ مولانــا السَّـاعة ، وإنَّ هِشـامًا لا زالَ غُلاما ، وقـد رأينـا أن نُقَلِّـدَ الخِلافَـةَ أميرًا أكـبرَ منـه سِنًّا ، وأنضجَ تجربة ، وقد وقعَ اختيارُنا على المُغيرة .

رأى المُصحَفِىُّ من الحِكمةِ أن يُسايرَهما ، فقال :

ـ هذا هو الرأى ، والأمرُ أمرُكما ، وأنا وغيرى فيـه تَبـعٌ لكمـا ، فاعزِمـا على مـا أردتمـا ، وأنـا أسـيرُ إلى الباب ، فأضبِطه بنفسى ، وأُنفِذُ أمرَكما إلىَّ بما شئتما .

وخـفَّ ابـنُ أبـى عـامر إلى حيـث كـانتِ الأمـيرة ، وانطلقَا فى القصر حتّى وجدا المُصحَفِى ، فقال لهما :

ــ لقدْ نكثَ الصَّقالِبـةُ بَيعـةَ هِشـام ، وإنَّ فائِقًــا وجؤذَرًا يُريدانِ أن يُقَلِّدا الخِلافَةَ المُغِيرة .

فقالت السَّيدةُ صُبح :

ـ ينبَغِى قتل المغيرة ، قبلَ أن يبلُغَه موتُ أخيه .

وبعثَت صبحُ ابـنَ أبـى عـامرٍ فـى مائـةِ غُـلامٍ من

غِلمانَ الحكَمِ إلى المُغيرة ، فدخلَ ابنُ أبى عامر عليه ، وأخبَرَه بموتِ أخيه ، وبنَقضِ الصَّقالِبةِ بيعَتَهم ، وفَطَنَ المُغِيرَةُ إلى أنَّ ابنَ أبى عامِرٍ ما جاءَ إلاّ لقتلِه ، فقال :

ـ إنّى سامِعٌ مُطيع ، موفٍ ببيعَتى ، فتوثَّقُوا منّى كيف شئتم ، لن تَجْنُوا شيئًا إذا أهْرَقْتُم دمى ..

أناشِدُكَ اللّه يا محمَّدُ فى دَمِى ، وألْتَمِسُ منك أن تُراجِعَهُم فى أمرى ، فما أظهَرْتُ خِلافًا ، ولا شَقَقْتُ عصا الجماعة . إنّى سامِعٌ مُطِيع .

وأثّرَ توسُّلُ الأميرِ فى نفسِ ابنِ أبى عامِرٍ ، فقال له :

ـ سأراجعُهم فى أمرِك .

وراحَ يكتُبُ إلى الأميرةِ والمُصحَفِىّ ، يصِفُ لهما جُنوحَ المُغِيرةِ إلى المُسالَمة ، ويسألُهما الرَّأىَ . فلم